يوسف وهبى

□ الفنان الأرستقراطى الصعلوك

- سكن القصور الفاخرة وغرفة فوق السطوح شاركه فيها الدجاج
- طرده أبوه من القصر فعمل في سيرك يستعرض عضلاته على أنغام الموسيقى
- أرسله والده لدراسة الكهرباء في أوروبا فارتمى في أحضان الفن
- ليلى بنت مدارس وراء حصوله على الباكوية
- رصيده الفني: ٣٢٠ مسرحية، ١١١ عملاً إذاعياً، ٥٨ فيلماً سينمائياً، ١٥ مسلسلاً

« وما الدنيا إلا مسرح كبير »

قالهـا «يوسـف بـك وهبي» مازحـاً وهو يـدرك أنهـا غالباً حقيقة..

عند الحديث عن هؤلاء الذين تركوا بصمات في حياتنا لا يمكن أن نتجاهل الفنان الكبير «يوسف وهبي» عميد المسرح العربي.

ذلك الفنان الأرسـتقراطي الذي سـرى حب الفن في دمائه منذ الصغـر.. كثـيرون أولئك الذيـن يعرفون عنه تربعـه على عرش التراجيديا لسـنوات طويلة في المسـرح، كما يعـرف له المعجبون بفنه عشـرات الأفلام الناجحة في السينما وتألقه في الأدوار المثالية والكوميديا، وقليلون من يعرفون أنه أثبت موهبة في التلحين.

علامة اسـتفهام كبيرة تفرضها الخلفية الأسرية التي نشأ فيها فنان الشعب من حيث ميلاده في أسرة أرستقراطية من ناحية، وفي وقت كان الفن عموماً مُحاطاً بنظرات الاحتقار والازدراء، خصوصاً مـن الطبقة العليا التي ينتمي إليها «يوسـف وهبي»، وكان يطلق على الممثلين لقب «المشخصاتية» إمعاناً في التحقير من شأنهم.

فمـا الذي دفع «يوسـف وهبي» لأن يعمل مشـخصاتياً؟، وما الـذي جعلـه يهرب من مصر ويترك العز والجـاه ويواجه المعاناة لدرجـة اضطـراره إلى العمل كمصارع محترف مقابل سـتة قروش في الليلـة كي ينفق منها، وكان ذلـك أمام المصارع المعروف وقتها «عبد الرحيـم المصري» الذي كان يعلن في كل ليلة عن مباراة بينه وبين مصارع أجنبي جذباً للجمهور، ولم يكن ذلك المصارع الأجنبي سوى «يوسف وهبي».

مدّ.. وجزر

عن مسيرة حياته الشخصية والفنية قال «يوسف وهبي» في أوراقه: إنها مسيرة طويلة وعمر عشته طولاً وعرضاً وكثيراً ما أسأل نفسي: كيف استطعت بمفردي ودون عون من أي مخلوق اجتياز الصعاب التي مرت بي لعشرات السنين، عشتها بين مد وجزر، في قصور فاخرة، في غرفة فوق السطح يشاركني فيها الدجاج.

رأس مال ضخم ورثته عن أبي وأضعته.. ثم استرددته.. ثم فقدته.. دراما لا تهدأ.. فقر وغنى.. شظف وترف.. ظلام وأضواء مبهرة.. قامرت وربحت وخسرت.. انتصرت وهزمت، ولكني لم أسلم سلاحي وأستسلم للأقدار.. ولم أغتر بالثراء ولم أجزع من الإفلاس العلني ومطاردة الديّانة.

هكذا كانت حياة «يوسف وهبي» الذي ولد في الرابع عشر من يوليو عام ١٨٩٨. في مرحلة حساسة للغاية من تاريخ المسرح المصري كان فيها لا يزال يبحث لنفسه عن هوية يتمسك بها ليأخذ المكانة التي يستحقها بين الفنون الأخرى.. وما من شك في أن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت غالبة في ذلك الوقت، كان لها دور سلبي في تعثر المسرح في مراحله الأولى، فقد تكونت أول فرقة مسرحية وكان اسمها «فرقة الكوميديا» على أيدي «يعقوب صنّوع» «أبو نظارة» الذي كان الممثل الأول والمخرج ومدير الفرقة. ثم جاءت فرق أخرى وممثلون عظام أمثال

«أبو خليل القباني» و«جورج أبيض» و«عبد الرحمن رشدي» و«عزيز عيد» و«عمر وصفي» وغيرهم.

لكن المسرح العربي قبل «يوسف وهبي» ظل يعاني من الارتجال والإيقاع البطيء وكانت مشاركة المرأة في العروض المسرحية شحيحة للغاية ويرجع ذلك بالطبع لظروف المجتمع ووضع المرأة من ناحية، وعدم حصول المسرح كفن على المكانة اللائقة به.

لذا عمل «يوسف وهبي» منذ اليوم الأول لتأسيس فرقته «رمسيس» على أن يُدخل على المسرح تعديلات وضوابط جديدة كي تضعه على الطريق الصحيح وتجعله يرتقي المكانة التي يستحقها سواء فنياً أو اجتماعياً.

ومن هذا المنطلق أدخل "يوسف وهبي" على المسرح المصري بعض العادات والتقاليد الجديدة منها تحديد موعد رفع الستار وإلغاء "البناوير" الخاصة بالنساء والتي كانت تغطى عادة بستائر من الدانتيل.

وقبل أن نتوغل أكثر في رحلة «يوسف وهبي» مع المسرح والفن الإبداعي نتوقف قليلاً مع نشأته وطفولته على أساس أن مرحلتي الطفولة والمراهقة.. عادة ما تسهمان بشكل كبير في تكوين شخصية صاحبها.

ينتمي لأسرة أرستقراطية عريقة، فوالده «عبد الله باشا وهبي» كان مهندس ري متميزا وكان دائم التنقل بين ربوع مصر، وقد ولد يوسف في الرابع عشر من يوليو عام ١٨٩٨م في محافظة سوهاج. وكان له ستة أشقاء، وبدأ يتلقى تعليمه الابتدائي في المدرسة التي

أسسـها والده في مدينة سـوهاج. وتلك كانت عادته في كل مدينة يعيش فيها.

ثم انتقلت الأسـرة للقاهـرة حين أقامت في منـزل كبير بحي المنيرة. والتحق يوسف بمدرسة الناصرية «مدرسة أبناء الذوات في ذلك العصر».

وفي الوقـت ذاته، ازداد تعلق يوسـف بالمسـرح وبدأ يشـاهد المسـرحيات في دار التمثيل العربي، وحضـر العديد من العروض لفرقة رائد الغناء المسـرحي سلامة حجازي مثل «عايدة» و«عظمة الملوك» وكان يوسف وهبي في ذلك لا يفترق عن صديقه محمد كريم الذي كان يشاركه حبه للمسرح والفنون.

يوسف.. بطل مصارعة

ولع يوسـف وهبي بالرياضـة كان كولعه بالتمثيل. وكان بطل المصارعـة عبد الرحيم المصري يدرب في نادي «أنصار القوة» الذي كان ملاصقاً لمسرح الكورسال. حيث كان يوسف يتقابل مع صديق آخـر له وهو «مختار عثمان».. وبعد أن ينهيا تدريبات المصارعة، يدخلان معاً لمسرح الكورسال لمشاهدة العروض المسرحية.

الخطوة الأولى.. في السبعين

عندما زاد اهتمام يوسـف وهبي ومحمد كريم بالمسرح وشغفهما به، انضما لفرق الهواة المسـرحية. وحقق يوسـف وهبي نجاحاً

منقطع النظير ولفت الأنظار إليه بشـدة في أول دور له على خشبة المسرح عندما مثل دور رجل عجوز عمره ٧٠ عاماً في رواية «الشرق المغتصب» لفرقة الفنان «حسن شريف».

ثم قام والد يوسف وهبي بنقله من المدرسة السعيدية إلى مدرسة الجمعية الخيرية الإسـلامية ليكون تحت رقابته المباشرة بحكم رئاسـته للجمعية. ولكن على رغم عدم تمكن يوسف من ممارسة هوايته التمثيلية في المدرسة الجديدة. إلا أنه كان يمارسها خارج المدرسة عندما انضم هو وصديقه محمد كريم لنادٍ جديد أنشئ في شـارع محمد علي.. وكان يوسف يزاول فيه رياضة رفع الأثقال وكذلك المصارعة. ثم انضم لفرقة التمثيل الملحقة بالنادي.. ولكن والـده شـاهده ذات مـرة بالصدفة فغضب غضباً شـديداً وطرده من البيت.

في السيرك

فجأة، وجد يوسـف وهبي نفسـه خارج القصـر وحياة الأبهة مطروداً، لا يجد من ينفق عليه. فاعتمد على نفسـه. وبحث عن مصدر رزق يعينه على مواجهة ظروف الحياة. فاشـتغل في سيرك رياضي يقدم عرضاً في رفع الأثقال مع تقديم اسـتعراض العضلات على أنغام الموسيقى.

دراسة المسرح.. لا الكهرباء

وخشـي والد يوسـف على ما يبدو مما قد يسـببه تشرد ابنه

من وجهة نظره من حرج للأسـرة، فقرر إرسـاله في بعثة دراسية لأوروبا ليبعده عن وسط المشخصاتية، وبالفعل سافر يوسف وهبي لإيطاليا. وكان والده يظن أنه يدرس الكهرباء. أما الواقع فهو أن يوسـف وهبي وجد الفرصة كي يرتمي في أحضان الفن الذي بهره وملك عليه حياته، ثم سـافر يوسـف من إيطاليا إلى فرنسا حيث تعرف على يوسـف عثمان وعزيز عيد وهناك عملوا معاً في مسارح فرنسـا. وعاش يوسف في تلك الفترة ما كان يسمي وقتها بالحياة البوهيمية حيث كان يرى أن الفنان لا يكون فناناً حقاً إلا إذا عاش هذه الحياة المدعوة بالبوهيمية.

العودة.. والانطلاق

فجأة توفي والد يوسـف وهبي وترك له ثروة تقدر بعشرة آلاف جنيـه ذهـب، وهي ثروة بالغـة الضخامة في ذلـك الوقت. فعاد يوسـف إلى مصـر وكله تصميـم على أن يفعل شـيئاً عظيماً بتلك النقود، ولكن الفن هو أعظم شيء في حياة يوسف وهبي.

فـكان طبيعياً أن يكرس كل الثروة التي ورثها عن أبيه لخدمة الفن. فقرر إنشـاء فرقة مسرحية أطلق عليها اسم فرقة «رمسيس» وافتتحت عروضها المسـرحية في العاشـر من مايـو عام ١٩٢٣م. وكانت مسرحية «المجنون» أول عروضها. وشاركته «روزاليوسف» في بطولتها ولاقت المسرحية نجاحاً هائلاً.

الباكوية

عمل «يوسف وهبي»، من خلال فرقة «رمسيس» على أن يفسح المجال أمام الوجوه الجديدة والمواهب الشابة، إلى جانب عمل أعظم الفنانين والفنانات وذوي الشهرة الواسعة فيها. وظلت الفرقة تحقق النجاح تلو الآخر حتى الثلاثينات من القرن الماضي، وفي عام ١٩٣٠م، أنشأ يوسف وهبي مدينة رمسيس للفنون «مدينة الإعلام حالياً».. وكانت المدينة أعجوبة زمانها في ذلك الوقت.. حيث كانت تضم مدينة للملاهي وسينما ومسرحاً وستوديو للسينما ومطاعم ومقاهٍ وأكشاكاً للموسيقى وساحات للباتيناج.. كما كان ستوديو رمسيس أول ستوديو يتم إنشاؤه في مصر، وافتتحه يوسف وهبي بإنتاج فيلم «أولاد الذوات» وكذلك شيد ستوديو «وهبي» في الجيزة وفيه صور أفلام «سيف الجلاد» و«غرام وانتقام» و«ليلى بنت مدارس»، وقد نجح الفيلم الأخير نجاحاً باهراً وبسببه حصل على لقب الباكوية.

وقت الشدة.. والأزمات

ظلت فرقة «رمسيس» تقدم عروضها بنجاح باهر ونال يوسف شهرة واسعة. حتى الثلاثينيات من القرن الماضي عندما ألقت الأزمة الاقتصادية بظلالها القاتمة على العالم أجمع، حيث تراكمت الديون على يوسف وهبي وفشلت الفرقة، على رغم كل

المحاولات المضنية التي بذلها يوسف للخروج من الأزمة، إلا أنه أفلس واستولى الدائنون على مدينة رمسيس للفنون.

ولكن إرادة يوسف وهبي الفولاذية ومثابرته وإصراره الشديد مكّنوه من أن يتغلب على الأزمة، بل أعاد تأسيس فرقة رمسيس المسرحية من جديد.

دفاعاً عن أم كلثوم

كان من أبرز صفات «يوسف وهبي» ثقته بنفسه واعتزازه بفنه لدرجة العناد والمكابرة، وحدث ذات مرة أن نشر الناقد «عبد المجيد حلمي» صاحب ورئيس تحرير مجلة المسرح في العشرينات والثلاثينات، مقالات نقد فيها يوسف وهبي نقداً شديداً، وكان أيضاً يهاجم كوكب الشرق أم كلثوم بشراسة لحساب «منيرة المهدية» التي كان يهواها، فقام يوسف وهبي باستئجار مجموعة من البلطجية، تربصوا بـ«عبد المجيد حلمي» وضربوه علقة ساخنة لتأديبه، وقد قال «يوسف وهبي» نفسه تعليقاً على ذلك: «انتقمت منه لنفسي أولاً ثم للمسكينة الآنسة أم كلثوم عله يتعلم الأدب بعد هذا الدرس».

مصلح اجتماعى

«يوسف وهبي» بلا شك، كممثل كان يمتلك موهبة متدفقة وإمكانيات وجدانية وبدنية هائلة مكنته من أن يلعب كل أدواره

بإتقـان تام وتفـرد لا مثيل له، وهو ما أكـده الفنان الكبير «زكي طليمات» حين قال: وهكذا كان يطلع علينا يوسف من وقت لآخر بأسلوب في الأداء التمثيلي، وطريقة في التعبير بملامح الوجه.. إن في جرابه الكثير من الحناجر والأقنعة.

أما على المسـتوى الاجتماعي، فقد لعب مسرح «يوسف وهبي» دوراً هائلاً، حيث شـن يوسف من خلال المسـرح هجوماً ساخناً على العادات الاجتماعية البالية والمستوردة والاستعمار، وكان أول من نـادى بإعادة توزيع ملكيـة الأرض الزراعية على الفلاحين، وكان ذلك في مسـرحية «رجل الساعة» ونادى كذلك بحق المرأة في التعليم والعمل ومساواتها بالرجل.

يوسف والسينما

قدم يوسف وهبي للسـينما ٥٨ فيلماً.. أولها فيلم «زينب» عام ١٩٣٠ وآخرها «السلخانة» عام ١٩٨٢م.

واستطاع يوسف أن يقدم للسينما أدواراً مازال الناس يذكرونها.. وتعتـبر من علامـات السـينما المصرية والعربية، فقـد تنقل بين التراجيديـا والكوميديا بفنه المتألق وحضـوره الطاغي حتى لو لم يكن هو بطل الفيلم.. مثل فيلم «إشـاعة حب»، فرغم وجود سعاد حسـني وعمر الشريف إلا أن يوسف وهبي بأدائه السلس والراقي كان بطل الفيلم المتألق.

والعمـــل الوحيد الذي تمنى يوســـف وهـــبي أن يمثله وينتجه هـــو فيلم «الفرعون الذي فقد الابتســـامة» لكنه لم يســـتطع تحقيق أمنيته.. حيث كان الموت أسبق.

وهكـــذا ترك يوســـف وهبي بصماته من خلال ٣٢٠ مســـرحية و١١١ عملاً إذاعياً و ١٥ مسلســـلا و ٥٨ فيلماً سينمائياً، ومن بين مســـرحياته تلك ١٠٠ مســـرحية عالمية و٦٠ مسرحية من تأليفه، وأكثر من ١٨٥ مسرحية من إخراجه.

وفي السابع عشر من أكتوبر ١٩٨٢م، ودعت مصر والأمة العربية فقيد الفن «يوسف بك وهبي» قائد المسرح العربي، وذلك في جنازة هائلة تتناســـب مع حجم فنان أعطى بحـــق كل ما يملك من مال وصحـــة وفكر وإبداع للناس، كما حمل راية الفن المحترم الهادف طوال حياته.

الثمن
يوسف وهبى . فاتن حمامه
ماري منيب
فاخر فاخر
عزيزه حلمي
شفيق نور الدين
عابده كامل
تحيه كاريوكا

المرء وما صنعت يمينه

حرامي بتاعتي
صلاح ذو الفقار
سعاد حسني
يوسف شاهين
حلاوة الروح